



فصول من سيرة مخيم اليرموك (9)

د. نائل عودة

حتى لحظة التحاقني في العمل مدرّساً للغة العربية أواخر الثمانينيات كان مدرّس المدارس الإعدادية والثانوية في معظمهم فلسطينيين ابتداءً من المخيم مروراً ببلدا وبيلا وسبينة وحجيرة إلى آخر قرية عند مطار دمشق هذا فضلاً عن ثانويتي اليرموك للبنين والبنات: مدير إعدادية يلدا الوحيدة هو الأستاذ عادل أبو إصبع.. مدير ثانوية بيلا للذكور (ثانوية الثورة) الأستاذ مروان كتمتو.. مديرة ثانوية بيلا للبنات الأستاذة نادية البدوي، وتتابع خط السير شرقاً، مدير ثانوية السيدة زينب الأستاذ عبد تميم (أبو هنادي) وقبلها عقربا وبيت سحم وغيرها من القرى حتى آخر قرية في الغوطة الشرقية قبل مطار دمشق (قرية الهيجانة) كان مدير إعداديتها فلسطيني من بيت (غثام) نسبت اسمه الأول، وكنث قد درّست فيها حوالي الشهر، ولم أستطع أن أستمر لبعدها المكان عن اليرموك وعن الجامعة حيث التحقت بدبلوم الدراسات العليا لدراسة الماجستير في قسم اللغة العربية - كلية الآداب وما يترتب عليه من أعباء في الوقت والمال لا أقدر على تحملها آنذاك، ولا أنسى في هذا السياق فضل المرّبي الفلسطيني الرائع (طلّاب خطّاب أبو سلطان) الذي كان الموجه الأول لمادة اللغة العربية في وزارة التربية الذي ساعدني في الانتقال من الهيجانة إلى بيلا، وأياديه البيضاء كثيرة عليّ وعلى غيري من المعلمين، وللعلم فإن الأستاذ (طلّاب خطاب) كان قبل هذا المنصب قد شغل منصب مدير للمدرسة الوحيدة في الدرياسية شمال سورية وبعدها مديراً لعدد من الثانويات التابعة لمحافظة درعا، منها: ثانوية إزرع وثانوية الشيخ مسكين، ثم مديراً لثانوية الكواكبي، وبعد ذلك مديراً لمعهد دار المعلمين ومديراً لمعهد إعداد المدرسين بدمشق، إلى أن انتهى به المطاف ليصبح الموجه الأول لمادة اللغة العربية في وزارة التربية، وأغلب أبنائه أطباء ومهندسون، وكان خدوماً لكل من يقصده وحازماً في تنفيذ المهام الموكلة إليه نشيطاً في عمله.

وفي العودة إلى طلاب تلك القرية (الهيجانة) فأقول إن عدم حبهم للتعليم جعل أي تحفيز أو دافعية لا ينفع معهم، وهذه صفة عامة في أبناء القرى في ذلك الزمان وربما في كل زمان... وهذا يقودني للحديث عن سبب آخر يتعلق بجزء غير قليل من الطلاب غير الفلسطينيين وعدم اندفاعهم الشديد نحو التعليم، فمعظمهم أبناء قرى وفلاحون مطمئنون إلى أراضيتهم التي تدر عليهم ما يفيهم مؤونة شفاء التحصل العلمي، كما أن التعليم ابن المدينة لكن حتى أبناء المناطق المجاورة للمخيم الذين كانوا أقرب للمدينة ومع هذا لم يكن يرغب معظمهم بالتعليم، لأن أولياء أمورهم يفضلون التجارة على العلم، وفي رأي أغلبهم يكفي الولد أن يتعلم القراءة والكتابة وشوية رياضيات وخلص، فيستطيع بعدها أن يجلس في محل أبيه في سوق الحمدية أو مدحت

باشا أو الحريقة أو البزورية أو الجزماتية أو سوق ساروجا لبيع الأقمشة أو البزورات أو الفلافل والحمص والكرشات... أو أن يجلس في محل أبيه بعد ذلك في أسواق مخيم اليرموك الرئيسية (لوية واليرموك وصفد) بعد أن باع معظم هؤلاء التجار الدمشقيين محلاتهم الصغيرة في سوق الحمدية أو مدحت باشا أو منطقة الحريقة واقتحموا محلات اليرموك المتواضعة في ذاك الوقت بنصف أو ربع تلك الأموال التي باعوا فيها محلاتهم، ما ترتب على ذلك لاحقاً ارتفاع جنوني بأسعار المحلات والبيوت في المخيم بفضل أولئك التجار، بل اغتنى كثير من الفلسطينيين بالصدفة الخالصة كون بيوتهم الصغيرة والفقيرة تقع على خط الغزو التجاري الجديد في شارع اليرموك أو لوية أو صفد، فأصبح سعر المحل أو البيت بالملايين فجأة!! هذه العقلية التجارية لدى أولياء أمور هؤلاء الطلاب جعلت العلم والتعليم في ذيل أولوياتهم إضافة إلى عدم قلقهم لا على الهوية ولا على الوجود ولا على الرزق وهم يعيشون في وطنهم وأرضهم ولا يشعرون بأي تهديد ولا تزعجهم كلمة لاجيء التي كان يرددونها أساتذتنا الأوائل: (أنت لاجيء وإذا لم تتعلم وتحصل على شهادة فلن تعمل حتى زبالاً في هذا البلد).. (يتبع)